٤ ريال

مطالب الطالب

ومثالب الناسخ

عبد الكريم بن صالح الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

(مطالب الطالب ومثالب الناكب)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.. فهذه مطالب لايستغنى عنها طالب الله والدار الآخرة لاسيما في هذا الزمان الذي استحكمت فيه غربة الدين، لكن ماكل أحد يعرف غربته وقد قال سهل بن عبدالله التستري - رحمه الله -: لايعرف الجهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم. كذلك غربة الدين لايعرفها إلا من عرفه وطلبه فيكون له علمًا به وإرادة له، فهذا ينكشف له من آفات الطريق وعوائقه وقواطعه مالاينكشف لغيره، فيشاهد الغربة ببصره وبصيرته، ومن هذه صفته لابد أن يكون بصيراً بزمانه.

فالإنسان إذا كان مع علمه المستفاد من مشكاة النبوة وإرادته الصادقة في طلبه بصيراً بزمانه رأى بعين بصيرته الآلهة الباطلة التي يُنَوِّعها الشيطان للخلق ويُغيِّر صورها وأشكالها مع تغيّر الأزمنة والأحوال مع أن حقيقتها واحدة

وهي الباطل فحذر ذلك واجتنبه وحَذّر عنه فيكون غريبًا كغربة دينه لأنه يطبق النصوص وينزلها على من تنطبق عليه في زمانه وأشخاص زمانه وأعمال أهل زمانه ومن اتصف بهذا فإنه يتفق على عيبه وذمّه ورميه بكل عظيمة جميع الخلق إلا من شاء الله وهذا من الابتلاء، ومن كان الله معه، فإنه يحميه ويحفظه ويكيد له والتوفيق بيده سبحانه.

* * *

العلم والعلماء

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: العالم من يخشى الله وتلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾.[1].

قال سفيان بن عيينة: ليس العالم الذي يعرف الخير من الشر، إنما العالم الذي يعرف الخير فيتبعه ويعرف الشر فيجتنبه.

عن زيد بن أسلم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**نرفع درجات من نشاء**﴾.[2] قال بالعلم. وعنه أيضًا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض**﴾[3]. قال: بالعلم.

وقال ابن عباس في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾[4]. قال: يرفع

---

(١) فاطر آية: ٢٨.
(٢) الأنعام آية ٨٣.
(٣) الإسراء آية ٥٥.
(٤) المجادلة آية ١١.

الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات.

قالت امرأة للشعبي: أيها العالم فقال: إنما العالم من خاف الله ـ عز وجل ـ. قال مسروق: كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله. قال الثوري: إذا فسد العلماء فمن يصلحهم؟ وفسادهم ميلهم إلى الدنيا وإذا جَرَّ الطبيب الداء إلى نفسه فكيف يداوي غيره؟!

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: عالم الآخرة علمه مستور وعالم الدنيا علمه منشور فاتبعوا عالم الآخرة واحذروا عالم الدنيا أن تجالسوه فإنه يفتنكم بغروره وزخرفته ودعواه العلم من غير عمل والعالم من صدق..

إن هذا الوصف لعالم الدنيا الذي وصفه الفضيل لاتكلفك معرفته شيئًا كثيرًا، فما هو إلا أن تفتح عينيك فترى ماشئت، وكما حذرك الفضيل من مجالسته، فاحذر كتبه فكتب أهل هذا الزمان مثلهم إلا من شاء الله.

قال بعض العلماء: علماء السوء أضر على الناس من إبليس، لأن إبليس إذا وسوس للمؤمن عرف المؤمن أنه عدو

مضل مبين، فأخذ في التوبة من ذنبه، واستغفر. وعلماء السوء يُفْتُون الناس بالباطل، ويزيدون الأحكام على وفق الأغراض والأهواء بزيفهم وجدالهم، فمن أطاع كان من: الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. فاستعذ بالله منهم واجتنبهم وكن مع العلماء الصادقين.

قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: إنما يُتعلم العلم ليُتقى به الله، وإنما فُضِّل العلم على غيره لأنه يُتقى به الله.

قال بشر بن الحارث ـ رحمه الله ـ: طلب العلم يدل على الهرب من الدنيا لاعلى حبّها. وكان يقال: أشرف العلماء من هرب بدينه عن الدنيا، واستصعب قياده على الهوى.

* * *

عقوبة من لم ينفعه علمه

أوحىٰ الله إلى داود: ياداود لاتجعل بيني وبينك عالمًا مفتونًا بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي، فإن أولئك قطّاع طريق عبادى المريدين، إنّ أدنىٰ ماأنا صانع بهم أن أنزع حلاوة المناجاة من قلوبهم[1]. تأمل كيف سمّاهم قطّاع طريق عباده المريدين، وتأمّل أدنىٰ عقوبتهم، فنسأل الله أن يتوب علينا، وأن يجنّبنا طريقهم.

عن فضيل بن عياض، وأسد بن الفرات ـ رحمهما الله ـ قالا: بلغنا أن الفسقة من حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان. قال الفضيل: لأنه من عَلِم ليس كمن لايعلم.

عن أبي العالية ـ رحمه الله ـ: قال: يأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن ولايجدون له حلاوة ولا لذاذة. فإن قصروا عما أمروا به. قالوا: إن الله غفور رحيم. وإن عملوا بما نهوا عنه، قالوا: سيغفر لنا إنا لم

(١) جامع بيان العلم وفضله جـ١ ص١٩٣.

نشرك بالله شيئًا. أمرهم كله طمع ليس معه صدق يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أفضلهم في دينه المداهن. قال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله ـ عز وجل ـ ماتجد من نتن الكفار فأوحىٰ الله إليها: بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه.

وسئل النبي ﷺ عن شرار الناس فقال: «**العلماء إذا فسدوا**»[1]. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ لكعب: مايُذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن حفظوه وَوَعَوْه؟ فقال يذهبه الطمع وتطلّب الحاجات إلى الناس. قيل لمكرز بن وبرة: ماالذي يبغضه البر والفاجر؟ قال: العبد يكون من أهل الآخرة ثم يرجع إلى الدنيا. قال سفيان: أوحى الله إلى موسى بن عمران: أن ليست عقوبتي لمن عرفني وأجترأ عليّ كمن لم يعرفني. قال بشر بن الحكم: سمعت سفيان يقول: ماازداد عبد علمًا فازداد في الدنيا رغبة إلا ازداد من الله بعدًا.

(١) جامع بيان العلم وفضله ص١٩٣.

الإخـــلاص

خرّج النسائي من حديث أبي أمامة قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**إن الله لايقبل إلا ماكـان خالصًـا وابتغىٰ به وجهه**». وخرّج أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلاً قال: يارسول الله! رجل يريد الجهاد وهو يريد عرضًا من عرض الدنيا فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**لا أجـر له**». فأعاد عليه ثلاثًا والنبي ﷺ: يقول: «**لا أجر له**». تأمّل هذين الحديثين وطبق معناهما على أهل الوقت تعرف كيف يكون الغرور.

قيل لسهـــل: أي شيء أشـد على النفس؟ فقـال: الإخـــلاص لأنـه ليس لها فيه نصيب. قال يوسف بن الحسين: أعزّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر. قال أبـو سليمان: إذا أخلص العبـد انقـطعت عنـه كثـرة الـوسـاوس والرياء. أما أهل وقتنا فيُسمون من تطلّب الإخلاص موسوس، ويقولون: دخله الوَسواس والمسألة

عكسية تمامًا فالوَسواس هو الشيطان من الإنس والجن الـذي أمـرنا الله بالاستعاذة من شرّه في سورة الناس، والإنسان إذا أطاع ربه، وأخلص له ابتعد عنه الوَسواس الـــذي هو شيطان الإنس والجن، فكيف يقـال دخله الوَسواس؟ لكن هؤلاء منافقون يرمون الناس بأدوائهم فهم قرناء الوسواس من الجن وهم الوَسواس نفسه من الإنس فهـــم كما يقـــال: رمـتـني بدائـهـا وانـسـلت

ومن أكـبر علامـات ذلـك سخـريتهم بمن تطلّب الإخـلاص لربه بطاعته واتباع نبيه ـ ﷺ ـ وسلك هذا الطريق، لأن إبليس هو الذي أقعدهم على هذا الطريق وهي عداوة أصيلة دائمة بين الحق والباطل. وهذا لايعني الاغترار لمن اتصف بذلك لأن الشيطان يكون أحرص على إضلاله منه عليهم حسدًا له لكن المقصود أنه ناله من الله رحمـة ومِنّـة فأبعـد عنـه الشيطان ووساوسه خلاف وعكس مايرميه به المنافقون فلا يبالي بهم.

قال صاحب منـازل السائرين الهروي: الإخلاص تصفية العمل من كل شَوْب.

قال ابـن الـقـيـم ـ رحمـــه الله ـ: أي لايمازج عمله

مايشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم والهرب من ذمِّهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم، ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقد متفرقاتها هو إرادة ماسوى الله بعمله كائنًا ماكان.

وقال ـ رحمه الله ـ: يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه. فالذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له وأنه بالله لابنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئته هو كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾[1]، وأنه لو خُلِّي ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء البتة، فإن النفس جاهلة ظالمة طبعها الكسل، وإيثار الشهوات، والبطالة، وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء. وماكان هكذا لم يصدر منه خير ولا هو من شأنه فالخير الذي يصدر منها إنما هو

(١) سورة التكوير آية ٢٩.

من الله وبه لامن العبد ولابه كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدًا ولكن الله يزكي من يشاء**﴾[1]. وقال أهل الجنة: ﴿**الحمد لله الذي هدانا لهذا**﴾[2] وقال ـ تعالى ـ: ﴿**ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم**﴾[3] الآية ـ فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته وإحسانه ونعمته وهو المحمود عليه. فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخَلْقِيَّة من سمعه، وبصره، وإدراكه، وقوته، بل صحته وسلامة أعضائه، ونحو ذلك، فالكل عطاء الله، ونعمته، وفضله، فالذي يخلّص العبد من هذه الآفة معرفة ربه ومعرفة نفسه. والذي يخلصه من طلب العوض على العمل علمه بأنه عبد محض، والعبد لايستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته فما يناله من سيده من الأجر والثواب

(١) سورة النور آية ٢١.
(٢) سورة الأعراف: آية ٤٣.
(٣) سورة الحجرات، آية ٧.

تفضّل منه وإحسان إليه وإنعام عليه لامعاوضة إذ الأجرة إنما يستحقها الحُر. والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه، وآفاته، وتقصيره، ومافيه من حظ النفس ونصيب الشيطان، فقلّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قلّ وللنفس فيه حظ، سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**»(١). فإذا كان هذا التفات طرفة أو لحظة، فكيف بالتفات قلبه إلى ماسوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية. وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحق الرب ـ جل جلاله ـ من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف، وأعجز، وأقل من أن يوفيها حقها،

(١) أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وغيره.

وأن يرضىٰ بها لربه، فالعارف لايرضىٰ بشيء من عمله لربه، ولايرضىٰ نفسه لله طرفة عين، ويستحي من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنه بنفسه، وعمله، وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضىٰ بعمله والرضىٰ عن نفسه. وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة، ثم يقبض على لحيته ويهزها، ويقول لنفسه: يامأوىٰ كل سوء وهل رضيتك لله طرفة عين.

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء فيها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور. انتهىٰ كلام ابن القيم قدس الله روحه.

وماأحوجنا له لنضعه على أمراض قلوبنا التي بسببها تفسد أعمالنا ونحن لانشعر. فهذه الآفات الثلاث التي ذكرها السلامة منها عزيزة، وياليتنا نتخفف، وكثير من الناس لايُعوّل على مثل هذا، ولايفتش نفسه مع أن عللنا ظاهرة لاتحتاج إلى تفتيش، ومع هذا لانحاول علاجها لتخلف الصدق فينا، وتوفر الإعجاب منا

بنفوسنا، فياله من كلام رفيع نفيس، وكم، وكم في طيّات كتب هذا العالم الربّاني وشيخه رحمهما الله من درر وجواهر لايعرف قدرها إلا موفق. وأنا أكرر الوصية باقتناء كتب هذين العالِمَيْن خاصة، وتدبر مافيها لمن أراد السلوك على هذا الطريق، ولايغتر بكتب هؤلاء المتأخرين اسمًا ومعنى، وإن زخرفوها وزوقوها، فكم آفة وبلية وداهية في طيّاتها قد لايشعر بها المبتديء، فيقع في شِراكهم وحبائلهم والمدار كله على التوفيق. وقد قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: عين الموفق بَصَر فرس لأنه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، والصدق في الطلب منار أين وُجد يدل على الجادة، وإنما يتعثر من لم يخلص، وإنما يمتنع الإخلاص ممن لايُراد فلا حول ولاقوة إلا بالله.

عن مطرف بن عبدالله الشخير قال: لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إليّ من أن أبيت قائمًا فأصبح معجبًا.

عن ضمرة بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة يرفعون عمل العبد من عباد الله يستكثرونه، ويزكونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي هذا لم**

يخلص لي ولم يخلص عمله فاجعلوه في سجين، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على مافي نفسه إن عبدي هذا أخلص عمله، فاكتبوه في عليين».

* * *

طلب الدنيا بالدين

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلَّم علمًا مما يبتغىٰ به وجه الله ـ تعالى ـ لايتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها»**. [رواه أبو داود وأحمد وابن ماجة وابن حبان في صحيحه].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ على هذا الحديث: سبب هذا والله أعلم أن في الدنيا جنة معجلة وهي معرفة الله، ومحبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك. فمن دلَّ علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة. ولهذا كان أشد الناس عذابًا في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه وهو من أشد الناس حسرة يوم القيامة. حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن معه جوهرة نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة أو شيء مستقذر لاينتفع به، فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه. انتهى...

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنزل الله في بعض الكتب أو أوحىٰ إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش، وقلوبهم كقلوب الذئاب، وألسنتهم أحلىٰ من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصبر إياي يخادعون وبي يستهزءون، لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيرانًا»**[1].

عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«بشر هذه الأمة بالسنا، والعز، والرفعة، والدين، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»**. [رواه الإمام أحمد].

عن النبي ـ ﷺ ـ قال: **«من أخذ على القرآن أجرًا، فقد تعجّل حسناته في الدنيا، والقرآن يحاججه يوم القيامة»**. [رواه أبو نعيم].

قال ـ ﷺ ـ: **«من قرأ القرآن ليأكل به أموال الناس**

(١) جامع بيان العلم وفضله جـ١ ص٨٩.

جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم». [رواه البيهقي].

أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن عن أبي سعيد، وصححه الحاكم رفعه: تعلموا القرآن، واسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرأه لله. قال قتادة: أحدث الناس ثلاثة أشياء لم يكن يؤخذ عليهن أجر. ضراب الفحل، وقسمة الأموال، والتعليم. عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كيف أنتم إذا لبستم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجري عليها الناس، فإذا غير منها شيء، قيل: قد غيرت السنة. قيل: متى ذاك ياأبا عبدالرحمن؟ قال: إذا كثر قرّاؤكم، وقل فقهاؤكم، وقل أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير العمل.

التماس الدنيا بعض الآخرة علامة لحلول الفتنة التي ذكرها ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ التي هي اليوم أعظم ماكانت في زمن من الأزمان. كذلك التفقه لغير العمل للدنيا والجدل. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

لو أن حملة العلم أخذوه بحقه وماينبغي لأحبهم الله وملائكته والصالحون، ولهابهم الناس، ولكن طلبوا به الدنيا، فأبغضهم الله، وهانوا على الناس.

قال ميمون بن مهران: ياأصحاب القرآن لاتتخذوا القرآن بضاعة تلتمسون به الربح في الدنيا، اطلبوا الدنيا بالدنيا، والآخرة بالآخرة. سئل سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ عن الغوغاء؟ فقال: هم الذين يطلبون بعلمهم الدنيا.

قال بشر بن الحارث ـ رحمه الله ـ: كان العلماء موصوفون بثلاثة أشياء: صدق اللسان، وطيب المطعم، وكثرة الزهد في الدنيا، وأنا لا أعرف اليوم واحدًا من هؤلاء فيه واحدة من هذه الخصال، فكيف أعبأ بهم، أو أبش في وجوههم، وكيف يدعي هؤلاء العلم وهم يتغايرون على الدنيا، ويتحاسدون عليها، ويجرحون أقرانهم عند الأمراء ويغتابونهم. كل ذلك خوفًا أن يميلوا إلى غيرهم بسحتهم وحطامهم. ويحكم ياعلماء أنتم ورثة الأنبياء، وإنما قد ورّثوكم العلم، فحملتموه، ورغبتم عن العمل به، وجعلتم علمكم حرفة تكسبون بها معاشكم،

أفلا تخافون أن تكونوا أول من تسعّر بهم النار؟

تأمّل قوله: وجعلتم علمكم حرفة تكسبون بها معاشكم. وقال بشر: مثل الذي يأكل من الدنيا بالعلم والدين مثل الذي يغسل يديه من الزهومة بماء تنظيف السمك، أو مثل الذي يطفيء النار بالحلفاء.

قال مالك بن دينار: إنكم في زمان أشهب لايبصر زمانكم إلا البصير، إنكم في زمان كثير تفاحشهم قد انتفخت ألسنتهم في أفواههم، فطلبو الدنيا بعمل الآخرة، فاحذروهم على أنفسكم لايوقعوكم في شباكهم.. إذا كان زمان مالك أشهب فزماننا أسود.

ذكر علي ـ رضي الله عنه ـ فتنًا فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ متى ذلك ياعلي؟ قال: إذا تفقه لغير الدين، وتعلم العلم لغير العمل، والتمست الدنيا بعمل الآخرة.. لولا قبح هذا الفعل لما صار علامة على حدوث الفتنة، وهذا مثل كلام ابن مسعود السابق الذي ذكر فيه الفتنة التي تلبس الناس، ومن علاماتها التماس الدنيا بعمل الآخرة، والتفقه لغير العمل، وبلا شك أنه وقتنا هذا.

قال ميمون بن مهران: إن هذا القرآن قد أخلق في

صدور كثير من الناس، فالتمسوا ماسواه من الأحاديث، وإن ممن يبتغي هذا العلم يتخذه بضاعة يلتمس به الدنيا، ومنهم من يتعلمه ليماري به، ومنهم من يتعلمه ليشار إليه، وخيرهم الذي يتعلمه فيطيع الله فيه.

كان ضرير يجالس سفيان الثوري، فإذا كان شهر رمضان يخرج إلى السواد، فيصلي بالناس، فيكسىٰ ويعطىٰ، فقال سفيان: إذا كان يوم القيامة أثيب أهل القرآن من قراءتهم، ويقال لمثل هذا: قد تعجلت ثوابك في الدنيا، فقال: ياأبا عبدالله تقول لي هذا، وأنا جليسك قال: أخاف أن يقال يوم القيامة: كان هذا جليسك أفلا نصحته؟

قيل لعبدالله بن المبارك: من سفلة الناس؟ قال: الذين يتعيشون بدينهم.

لقي سفيان الثوري شريكًا بعد ماولي قضاء الكوفة فقال: ياعبدالله! بعد الإسلام والفقه والخير تلي القضاء، وصرت قاضيًا، فقال له شريك: ياأباعبدالله لابد للناس من قاض، فقال له سفيان: ياأبا عبدالله لابد للناس من شرطي.

قال الإمام أحمد: لاتكتبوا العلم عمن يأخذ عليه عرضًا من الدنيا، وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ونحن نمنع من أخذ الأجرة على كل قربة، ونحبط بأخذها الأجر عليها: كالقضاء، والفتيا، وتعليم العلم، والصلاة، وقراءة القرآن، وغيرها، فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص أخلص العمل لوجه الله، فإذا فعله للأجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والإكساب الدنيوية.

كان سرى السقطي يذم من يأكل بدينه، ويقول: من النذالة أن يأكل العبد بدينه.

قال مالك بن دينار للحسن: ماعقوبة العالم؟ قال موت القلب قال: وماموت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة.

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ: ومن صلى بأجرة لم يصل خلفه.

ذكر الكعبري أن مسجدًا على باب الإمام أحمد، وأنه لايصلي فيه قال فقلت: هذا الإمام من هو؟ قالوا إسحاق

عم أحمد بن حنبل. قلت: فماله لايصلي خلفه؟ قال: ليس يكلم ذا ولابنيه لأنهم أخذوا جائزة السلطان.

قال الفضيل بن عياض لسفيان بن عيينة: كنتم معاشر العلماء سرجًا للبلاد يُستضاء بكم فصرتم ظلمة. وكنتم نجومًا يُهتدى بكم فصرتم حيرة، أما يستحي أحدكم إذا أتى هؤلاء الأمراء وأخذ من مالهم، وهو يعلم من أين أخذوه، ثم يسند ظهره إلى محرابه، ويقول: حدثني فلان عن فلان. قال أبو داود في السنن: باب أخذ الأجر على التأذين. ثم ذكر حديث عثمان بن أبي العاص قال: يارسول الله اجعلني إمام قومي. قال: **«أنت إمامهم، واقتد بأضعفهم، واتخذ مؤذنًا لايأخذ على أذانه أجرًا»**.

قال حماد بن سلمة: من طلب الحديث لغير الله مُكِرَ به. وقال سفيان: إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة. وقال الحسن: من أفرط في حب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه، ومن ازداد علمًا ثم ازداد على الدنيا حرصًا لم يزدد من الله إلا بغضًا ولم يزدد من الدنيا إلا بعدًا.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن الشيطان يريد الإنسان بكل رَيْدَه «**أي بكل مطلب ومراد**». فيمتنع منه، فيجثم له عند المال فيأخذ بعنقه، قد يقال: لماذا هذا كله والنبي ﷺ يقول: «**أحق ماأخذتم عليه أجرًا كتاب الله**». بعض الناس يذكر هذا الحديث يحتج به على مايفعل في زماننا، وليس فيه حجة له لأخذ الأجرة على العلم، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عنه فقال: نعم ثبت ذلك أنه قال: «**أحق ماأخذتم عليه أجرًا كتاب الله**». لكنه في حديث الرقية وكان الجُعل على عافية مريض القوم لا على التلاوة. فتنبّه لقول الشيخ: لا على التلاوة فهو كالدواء على شرط العافية، فأين هذا مما نحن فيه؟ فبطل هذا الاستدلال.

والحديث ذكره البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن ابن عباس أن نفرًا من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ مرّوا بماء فيهم لديغ أو سليم فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل فيكم من راق؟ إن في الماء رجلاً لديغًا أو سليمًا، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاة فبرأ فجاء بالشاة إلى أصحابه، فكرهوا ذلك، وقالوا:

أخذت على كتاب الله! أجرًا حتى قدموا المدينة فقالوا: يارسول الله أخذ على كتاب الله أجرًا، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**أحق ماأخذتم عليه أجرًا كتاب الله**..». فليس فيه حجة لمن جعل العلم تجارة دنيوية، كذلك فإن نفس الحديث حجة على من احتج به، فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنكروا ذلك على صاحبهم، ولم تطمئن قلوبهم لفعله لِعلّة أنه أجر على كتاب الله لذلك قالوا يارسول الله أخذ على كتاب الله أجرًا يعني أن هذا متقرر عندهم قبحه أن يأخذ الإنسان على كتاب الله أجرًا لكن لما أخبرهم ـ ﷺ ـ أن ذلك جائز في الرقية على شرط العافية كما قرر شيخ الإسلام، وأن الذي أخذه صاحبهم هو المشروط على عافية المريض لا على التلاوة زال عنهم الإشكال.

فقياس هذا على مايفعل في زماننا قياس فساد. وقد قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أكثر مايخطيء الناس من جهة التأويل والقياس وصدق ـ رحمه الله ـ فقد رأينا من هذا عجائبًا في زماننا. فالتأويل هو تفسير القرآن والحديث على غير معناه الذي أراده الله ورسوله،

والقياس الفاسد هو الذي يقارنه اتباع الهوى، فيعمى صاحبه عن إصابة الحق، أو هو يتعامى عن ذلك ولو قيل أن مفاسد زماننا كلها جاءت من التأويل والقياس لكان صحيحًا.

ولايقاس هذا التعليم المحدث على التعليم القديم فهؤلاء يصرحون أن مرادهم الدنيا، فالمسألة مكشوفة، والذي لايصرح منهم فهذه حقيقة مراده، ولم نشق عن قلوبهم، لكن كما يقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، ولا أحصي من خاطبته منهم، ويصرح أن مراده الدنيا ولو كان الواحد منهم صادقًا في طلبه العلم لما رضي بما يفسد العقيدة، ولاجالس من يرضي بذلك: مثل القول بدوران الأرض، والصور المحرمة، ومدح أعداء الله وجميع علوم الغربيين العصرية التي تفسد العقيدة، فالذي يقصد وجه الله ـ تعالى ـ بعلمه لايمكن أن يرضى بهذا.

كذلك يقول قائل: الصحابة يأخذون الغنائم ويقصد القائل، أن هذا مثل مايؤخذ اليوم على العلم، وهذه عجيبة أخرى أن يقاس هذا بهذا فالصحابة ـ رضي

الله عنهم ـ لو كان قصدهم الغنائم لبطل أجرهم، وقد ذكرنا أحاديث النبي ـ ﷺ ـ في ذلك في فصل الإخلاص صفحة ١٠ وفي فصل طلب الدنيا بالدين صفحة ١٨.

كذلك فرق بين أموال الغنائم وغيرها من هذه الأموال. ونحن لسنا ولله الحمد منافسين لهؤلاء فيما رضوا به لنفوسهم من هذه الحظوظ العاجلة حتى يقال: إننا نحسدهم، لكن كلمة الحق هي مرادنا وقد جمعنا في هذه الأوراق من كلام أهل العلم مايكفي ويشفي لمن وفق.

* * *

العلماء والسلاطين

قال جعفر الصادق: الفقهاء أمناء الرسل مالم يأتوا أبواب السلاطين.

قال سفيان: إذا لم يكن لله في العبد حاجة نبذه إليهم يعني إلى السلاطين.

قال سفيان: إذا رأيت القاريء يلوذ بباب السلطان، فاعلم أنه لص، فإذا رأيته يلوذ بالأغنياء، فاعلم أنه مرائي.

عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**لاتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولاتماروا به السفهاء ولاتخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار**». [صححه البوصيري وابن حبان والحاكم].

لما ولي إسماعيل بن عليّة على الصدقات بالبصرة كتب إلى عبدالله بن المبارك يستمده رجال من القراء يعينونه على ذلك فكتب إليه عبدالله:

ياجاعل العلم بازيا ... يصطاد به أموال السلاطين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين

فصرت مجنونًا بعد ما ... كنت دواءًا للمجانين
أين رواياتك فيما مضى ... عن ابن عون وابن سيرين
ودرسك العلم بآثاره ... وتركك أبواب السلاطين
تقول أكرهت فما حيلتي ... زل حمار الشيخ بالطين
لاتبتغي الدنيا بدين كما ... يفعل ضلال الرهابين

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إن على أبواب السلاطين فتنًا كمبارك الإبل، والذي نفسي بيده لاتصيبون من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينكم مثله أو قال مثليه.

قال سفيان ـ رحمه الله ـ: وإيَّاك والأمراء وأن تدنوا منهم، أو تخالطهم في شيء من الأشياء، أو يقال تشفع وتدرأ عن مظلوم، أو ترد عنه مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذ ذلك القراء سلّمًا للقرب منهم واصطياد الدنيا بذلك.

قال الفضيل بن عياض لسفيان بن عيينة: كنتم معاشر العلماء سرجًا للبلاد يستضاء بكم فصرتم ظلمة، وكنتم نجومًا يهتدىٰ بكم فصرتم حيره، أما يستحي أحدكم من الله إذا أتىٰ هؤلاء الأمراء وأخذ من مالهم وهو

يعلم من أين أخذوه ثم يسند بعد ذلك ظهره إلى محرابه ويقول: حدثني فلان عن فلان.

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: ومن تلبيس إبليس على الفقهاء مخالطتهم الأمراء والسلاطين، ومداهنتهم، وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك، وربما رخّصوا لهم فيما لارخصة لهم فيه لينالوا من دنياهم عرضًا، فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه:

الأول: الأمير يقول لولا أني على صواب لأنكر عليّ الفقيه، وكيف لا أكون مصيبًا وهو يأكل من مالي.

والثاني: العامي أنه يقول: لابأس بهذا الأمير ولا بماله ولا بأفعاله فإن فلانًا الفقيه لايبرح عنه.

الثالث: الفقيه فإنه يفسد دينه بذلك.

قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها من الأمراء، فلما رأى ذلك قوم من رذالة الناس تعلموا ذلك العلم وأتوا به إلى الأمراء فاستغنت به عن العلماء، واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا، وانتكسوا، ولو كان علماؤنا يصونون علمهم لم تزل الأمراء تهابهم.

العمل بالعلم

قال عيسى عليه السلام للحواريين: يابني إسرائيل، مايغني عن الأعمى معه نور الشمس وهو لايبصرها ومايغني عن العالم كثرة العلم وهو لايعمل به. وقال: كيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم ليحدث ولايطلبه ليعمل به؟!

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: ياحملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم فوافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لايجاوز تراقيهم يخالف علمهم عملهم، ويخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقًا حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا حتى أن الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره ويدعه أولئك لاتصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله ـ عز وجل ـ.

قال ابن الجوزي: تأملت العلماء والمتعلمين فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمارة النجابة لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله يعلمون ولايفهمون لما تركوا العمل بما علموه استكبارًا واتباعًا لأهوائهم عوقبوا بأن منعوا الفهم والعلم، فإن العلم حرب للمتعالي كما أن السيل حرب للمكان العالي.

والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموا فأتاهم الله علمًا ورحمة إذ من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم.

قال مالك بن دينار: إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه، وإذا تعلم لغير العمل زاده فجورًا وتكبرًا واحتقارًا للعامة.

لقد رأيناهم وهم أكثر أهل زماننا طلبوا العلم للدنيا فزادهم فجورًا وتكبرًا واحتقارًا للعامة، بل زادهم احتقارًا للسلف. ويروى أن سفيان ـ رحمه الله ـ كان ينشد متمثلاً بأبيات لسابق البربري:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة عليك ولم تعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أوتيت علمًا فإنما يصدق قول المرء ماهو فاعله

عن عبدالرحمن بن غانم قال: حدَّثني عشرة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا: كنا نتدارس العلم في

مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «**تعلموا ماشئتم فلن يأجركم الله حتى تعملوا**».

قال الحسن البصري: عظ الناس بفعلك ولاتعظهم بقولك. وقال الشافعي: من وَعَظَ بفعله كان هاديًا. ولذلك قال المأمون: نحن إلى أن نوعظ بالأعمال أحوج منا أن نوعظ بالأقوال.

قال ذو النون المصري: اجلس إلى من تكلمك صفته ولاتجلس إلى من يكلمك لسانه. ويقال: نصاب زكاة الواعظ الاتعاظ، فكيف يزكي من لانصاب له؟!

تأمَّل كلام الحسن والشافعي وذو النون وهذا السطر الأخير وكلام الجنيد الذي سنذكره تجد أن كلام المأمون يؤيده ويفسره.

كتب الجنيد بن محمد إلى بعض إخوانه: اعلم ـ رضي الله عنك ـ أن أقرب مااستدعىٰ به قلوب المريدين، ونبّه به قلوب الغافلين وزجرت عنه نفوس المتخلفين ماصدقته من الأقوال جميع ماأتبع من الأفعال.

فهل يحسن ياأخي أن يدعوا داع إلى أمر لايكون عليه شعاره. ولاتظهر منه زينته وآثاره. وألا يكون قائله عاملاً

فيه بالتحقيق. وبكل فعل بذلك القول يليق، وأفِكَ من دعا إلى الزهد وعليه شعار الراغبين، وأمر بالترك وكان من الآخذين، وأمر بالجد في العمل وكان من المقصرين، وحث على الاجتهاد ولم يكن من المجتهدين. إلا قلّ قبول المستمعين لقيله. ونفرت قلوبهم لما يرون من فعله. وكان حجة لمن جعل التأويل سببًا إلى اتّباع هواه. ومسهلاً لسبيل من آثر على آخرته دنياه. أما سمعت الله ـ تعالى ـ يقول وقد وصف نبيه شعيبًا وهو شيخ الأنبياء وعظيم من عظماء الرسل والأولياء وهو يقول: ﴿**وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه**﴾[1].

انظر قوله: وكان حجة لمن جعل التأويل سببًا إلى اتباع هواه ومسهلاً سبيل من آثر آخرته على دنياه تجد هذا حجة الكثيرين عندنا يقولون: فلان وفلان. فهو قدوة سيئة كما وصف الجنيد ـ رحمه الله ـ.

عن مالك بن مغول في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فنبذوه وراء ظهورهم**﴾[2]. قال: تركوا العمل به.

(١) سورة هود آية ٨٨. (٢) سورة آل عمران آية ١٨٧.

قال عيسى عليه السلام للحواريين: لست أعلمكم لتعجبوا إنما أعلمكم لتعملوا. ليست الحكمة القول بها إنما الحكمة العمل بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه، والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته**﴾[1] قال: يتلونه حق تلاوته يتبعونه حق اتباعه.

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أتل ماأوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾[2]. قال: تلاوة الكتاب العمل بطاعة الله كلها. وكذلك قال غيره من العلماء.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: إنا كنا صدور هذه الأمة، وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله،

(١) سورة البقرة آية ١٢١. (٢) سورة العنكبوت آية ٤٥.

ﷺ، وصالحيهم مايقيم إلا سورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلاً عليهم ورزقوا علمًا به وعملاً، وإن آخر هذه الأمة يخف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والعجمي لايعلمون منه شيئًا أو قال لايسلمون منه الشيء.

تأمَّل هذا تعرف حال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وأن القرآن علم وعمل ليس مسابقة للحفظ بدراهم معدودة، وليس كما يقول المتأخرون: القرآن والعلم أو الدين والعلم أو الإسلام والعلم فيجعلون القرآن والدين والإسلام شيء والعلم شيء يموهون على الجهال فيقولون: الإسلام لاينافي العلم فيقال لهؤلاء: ماقصدكم بالعلم؟ إن كان هو العلم النافع الذي أمرنا بتعلمه فهو الإسلام وهو القرآن وهو الدين، وإن كان قصدكم علوم الغرب، فهذه ينافيها الدين، فينبغي ملاحظة ذلك، فإنهم كثيرًا مايستعملون هذه العبارات التي تُوهم الجاهل بصحتها وهي غير صحيحة، ومبنية على أصل فاسد.

كذلك تأمَّل قوله ـ رضي الله عنه ـ: (**وإن آخر هذه**

الأمة يخف عليهم). يعني القرآن وهو زماننا هذا قطعًا وإن تساءلت ماالذي سبب خفة القرآن على آخر الأمة وثقله على أولها يجيبك ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بأن أولئك رزقوا علمًا به وعملاً وهؤلاء لايعلمون منه شيئًا أولايسلمون منه الشيء، وإن أردت زيادة بيان قلنا لك أولئك أرادوا به وجه الله والجنة، وهؤلاء يتاجرون به لنيل الدنيا، فهم يتعجلونه ولايتأجلونه.

وقد ورد أن ابن عمر هذا ـ رضي الله عنه ـ تعلَّم سورة البقرة في ثمان سنين. والصبي اليوم يحفظها في أقل من شهر فاعرف المراد.

* * *

الورع وأكل الحلال

سأل عمر بن صالح الطرسوسي أبا عبدالله أحمد بن حنبل بِمَ تلين القلوب؟ فقال: يابني بأكل الحلال. فمررت كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث، فقلت: ياأبا نصر بما تلين القلوب؟ فقال: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[1] فقلت: إني جئت من عند أبا عبدالله فقال: أي شيء قال لك أبو عبدالله؟ قلت: قال: بأكل الحلال قال: جاء بالأصل، فمررت إلى عبدالوهاب الوراق، فقلت ياأبا الحسن بما تلين القلوب؟ قال: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾. قلت: فإني جئت من عند أبا عبدالله فاحمرت وجنتاه من الفرح، وقال لي: أي شيء قال أبو عبدالله؟ فقلت: قال بأكل الحلال. فقال: جاءك بالجوهر. جاءك بالجوهر الأصل، كما قال الأصل كما قال انتهى. لقد ضيع هذا الأصل والجوهر اليوم كغيره.

قال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة

(١) سورة الرعد آية ٢٨.

والصوم، وإنما العبادة التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إن الناس قد ضيعوا أعظم دينهم الورع.. تأمل كيف جعلته أعظم دينهم وتفقده اليوم.

قال عبدالله بن المبارك ـ رحمه الله ـ: لأن أرد درهمًا من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدَّق بستمائة ألف ألف.

قال رجل لعيسى عليه السلام: أوصني. قال: انظر خبزك من أين هو.

قال الفضيل: من عرف مايدخل جوفه كان عند الله صدّيقًا فانظر من أين طعامك يامسكين.

قال أبو عبدالله الساجي: خمس خصال ينبغي للمؤمن أن يعرفها: إحداهنَّ معرفة الله ـ تعالى ـ. والثانية معرفة الحق. والثالثة إخلاص العمل لله. والرابعة العمل بالسنة. والخامسة أكل الحلال. فإن عرف الله ولم يعرف الحق لم ينتفع بالمعرفة، وإن عرف ولم يخلص العمل لله لم ينتفع بمعرفة الله، وإن عرف ولم يكن على السنة لم ينفعه، وإن عرف ولم يكن المأكل من حلال

لم ينتفع بالخمس. وإذا كان من حلال صفا له القلب فأبصر به أمر الدنيا والآخرة. وإن كان من شبهة اشتبهت عليه الأمور بقدر المأكل وإذا كان من حرام أظلم عليه أمر الدنيا والآخرة، وإن وصفه الناس بالبصر فهو أعمىٰ حتى يتوب.

قال سفيان: كل من تخوفت من طعامه أن يفسد عليك قلبك فلا تجبه.

قال إبراهيم بن أدهم لشقيق البلخي: ياشقيق لم ينبل عندنا من نبل بالحج ولا بالجهاد، وإنما نبل عندنا من نبل من كان يعقل مايدخل جوفه يعني الرغيفين من حله.

عن الضحاك بن مزاحم قال: كان أولكم يتعلمون الورع ويأتي عليكم زمان يُتعلم فيه الكلام، وكان أولكم أخوف مايكونون من الموت أصح مايكونون.

قال الفضيل: إن لله عبادًا يحيي بهم العباد والبلاد، وهم أصحاب سنة من كان يعقل مايدخل جوفه من حله كان في حزب الله تعالى.

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إن الدين ليس بالطنطنة في آخر الليل، ولكن الدين الورع.

عن عمرو بن قيس الملائي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**فضل العلم خير من فضل العبادة، وملاك الدين الورع**». (رواه البزار بإسناد حسن والطبراني والحاكم).

كان أبو وائل يقول لجاريته: يابركة إذا جاءك يحيى يعني ابنه بشيء فلا تقبليه، وإذا جاء أصحابي بشيء فخذيه. وكان يحيى قاضيًا على الكناسة[1].

قال الحسن: أفضل العلم الورع. وقال صالح بن مهران: إذا رأيت العالم لايتورع في علمه فليس لك أن تأخذ عنه.

قال أبو حفص النيسابوري: أحسن مايتوسل به العبد إلى مولاه دوام الفقر إليه على جميع الأحوال وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجهه الحلال.

قال الفضيل ـ رحمه الله ـ: أهل السنة من عرف مايدخل بطنه من حلال. قال ابن رجب بعد أن ذكر كلام الفضيل هذا: وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصال السنة التي كان عليها النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

(١) مدينة بفلسطين.

قال وهب بن منبه: من سرّه أن يستجيب الله دعوته فليطب طعمته. وقال يوسف بن أسباط: بلغنا أن دعاء العبد يحبس عن السموات بسوء المطعم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله، ﷺ: **«لاتقوم الساعة حتى يكون الزهد رواية والورع تصنعًا»**(١).

قال مجاهد: من لم يستح من الحلال خفّت مؤنته، وأراح نفسه، وقل كبره.

قال شيخ الإسلام: قال أبو الحسن الأشعري وهو يذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث في كتابه قال: ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة وذكر كلامًا ثم قال: وتفقد المآكل والمشارب.

قال سهل بن عبدالله التستري: أصولنا ستة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله، ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المآثم، وأداء الحقوق.

(١) قال أبو نعيم: غريب من حديث الحسن لم يروه عن الحسن مرفوعًا فيما أعلم إلا حسان «يعني حسان بن أبي سنان». الحلية جـ٣ ص١١٩.

تجريد اتباع الرسول ﷺ

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وأما تجريد اتباع الرسول وتحكيمه، وتفريغ قوى النفس في طلبه وفهمه، وعرض آراء الرجال عليه، ورد مايخالفه منها، وقبول ماوافقه، ولايلتفت إلى شيء من آرائهم وأقوالهم إلا إذا أشرقت عليها شمس الوحي، وشهد لها بالصحة، فهذا لاتكاد ترى أحدًا منهم يحدّث به نفسه فضلاً عن أن يكون آخيته ومطلوبه، وهذا الذي لاينجي سواه.

فوارحمتاه لعبد شقي في طلب العلم، واستفرغ فيه قواه، واستنفد فيه أوقاته، وآثره على ماالناس فيه، والطريق بينه وبين رسول الله ـ ﷺ ـ مسدود. وقلبه عن المرسل ـ سبحانه وتعالى ـ وتوحيده، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والتنعم بحبه، والسرور بقربه، مطرود ومصدود.

وقال أيضًا: وبالجملة تجعل الرسول شيخك، وأستاذك، ومعلمك، ومربيك ومؤدبك، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ، كما تسقط الوسائل بينك وبين

المرسل في العبودية، ولاتثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لايجوز له تقليد أحد في خلافه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فصل: والفرق بين تجريد المعصوم، ﷺ، وإهدار أقوال العلماء، وإلغائها، أن تجريد المتابعة ألا تقدم على ماجاء به قول أحد ولا رأيه كائنًا من كان، بل تنظر في صحة الحديث أولاً، فإذا صح لك نظرت في معناه ثانيًا، فإذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفك من بين المشرق والمغرب، ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ماجاء به نبيها، بل لابد أن يكون في الأمة من قال به، ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل حجة على الله ورسوله، بل اذهب إلى النص، ولاتضعف واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا، ولكن لم يصل إليك هذا مع حفظ مراتب العلماء، وموالاتهم، واعتقاد حرمتهم، وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه، فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لايوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها

بشبهة أنه أعلم بها منك فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك، فهلاّ وافقته إن كنت صادقًا. فمن عرض أقوال العلماء على النصوص، ووزنها بها، وخالف منها ماخالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم، بل اقتدىٰ بهم، فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتبعهم حقًا من امتثل ماأوصوا به لامن خالفهم. فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ماقال، وبين الاستعانة بفهمه، والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه، ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلده به ولذلك سمّي تقليدًا بخلاف من استفاد بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنىٰ بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدلّ بالنجم على القبلة، فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى.

قال الشافعي: أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

معنى الاستضاءة بنور العالم التي ذكرها ابن القيم - رحمه الله - هي فهم كلامه الحق وقبوله والعمل به، ليس هو كما يفعل الضلّال بأن يوجه أحدهم قلبه إليه سواءًا كان حيًا أو ميّتًا، فيظن أنه بذلك يقتبس من نوره كما تقابل المرآة الشعاع هذا عبودية لأن توجيه القلب وجمع الهمه هكذا لايصلح لغير الله لذلك هو خلاف فطرة القلب الذي توجّهه إلى العلو مادامت فطرته سليمة، وهذا يفعله كثير مع الأحياء والأموات وهو من جنس التبرك والذي يوقع في هذا أن الشخص قد يجد رقة في قلبه واستنارة بعد مجالسة العالم، أو زيارة قبره، فإذا كان جاهلاً أوْهَمَه الشيطان أن هذا انعكاس نور هذا العالم عليه فيصرف قلبه عن عبوديته لربه ويقع في نوع من الشرك وهو لايشعر، بل يعتبر هذا أفضل القرب مع أن الرقة التي حصلت له والاستنارة إنما هي لفهمه الحق الذي قاله العالم ومحبته له وقبوله منه، والحق نور يجلي ظلمة الباطل من القلب، أو هو خدعة من الشيطان.

وإذا كان المَزور ميتًا، فإما أن يكون حصلت للحي الرقة والاستنارة ثوابًا لعمله إذا كان الميت صالحًا، أو لتذكره أمر الآخرة، فيحصل له ذلك، أوتخييل من الشيطان ليوهمه أن هذا من المقبور كما وصفنا فيتعبده قلبه توهمًا منه أنه يقتبس من نوره بهذه الصورة، فينصرف قلبه عن ربه، وهذا يقع كثيرًا للجاهل بصفات الرب - سبحانه - ومعنى العبودية التي لاتصلح إلا له.

* * *

الرئاسة والشهرة

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن أول الخلق تسعر بهم النار يوم القيامة: ثلاثة منهم العالم الذي قرأ القرآن ليقال قاريء، وتعلم العلم ليقال عالم، وأنه يقال له قد قيل ذلك، وأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**».

وذكر مثل ذلك في المتصدق ليقال: إنه جواد، وفي المجاهد ليقال: إنه شجاع.

قال القاسم بن عثمان: حب الرئاسة أصل كل موبقة. عن أبي بن كعب قال: تعلموا العلم، واعملوا به، ولاتتعلموه لتتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم زمان أن يُتجمل بالعلم كما يَتجمل الرجل بثوبه.

عن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**». [صححه الترمذي ورواه أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه].

قال سفيان الثوري: مارأيت الزهد في شيء أقل منه

في الرئاسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإذا نُوزع في الرياسة حامى عليها وعادى.

قال أبو سليمان الداراني: ماأفلح من شُمَّت منه رائحة الرئاسة وقال إبراهيم بن أدهم:

توقّ لمحظور صدور المجالس
فإن عضول الداء حب القلانس

وقال سفيان: الزهد في الدنيا: الزهد في الناس وقال إبراهيم بن أدهم: ماصدق الله من أحب الشهرة. وقال محمد بن العلاء: من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس.

قال الفضيل: مامن أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغىٰ وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير.

قال أبو نعيم: والله ماهلك من هلك إلا بحب الرئاسة. وقال ابن الجوزي: سمعت إسحاق بن خلف يقول: والله الذي لا إله إلا هو لإزالة الجبال الرواسي أيسر من إزالة الرياسة. وقال سفيان: من أحب الرئاسة فَلْيُعِدّ رأسه للنطاح. يعني يتهيأ لمنافسة الأقران بالظلم والحسد والبغي.

وروي عن علي أنه خرج يومًا من المسجد فاتبعه

الناس فالتفت إليهم وقال: أي قلب يصلح على هذا؟ ثم قال: خفق النعال مفسده لقلوب نوكىٰ الرجال (النوكىٰ الحمقىٰ).

قال بشر: حب لقاء الناس حب الدنيا وترك لقاء الناس ترك الدنيا، وقال: لا أعلم رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح.

قال سفيان في كتابه إلى عباد بن عباد: وإياك وحب الرئاسة، فإن الرجل يكون حب الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لايبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقد بقلب، واعمل بنية، اعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت، والسلام.

قال ابن القيم: إذا عزم العبد على السفر إلى الله - تعالى - وإرادته عرضت له الخوادع، والقواطع، فينخدع أولاً بالشهوات، والرياسات، والملاذ، والمناكح، والملابس، فإن وقف معها انقطع.

قال الإمام أحمد: القلانس من السماء تنزل على رؤوس قوم يقولون برؤوسهم هكذا وهكذا.

لذلك قال بشر: لو سقطت قلنسوة من السماء ماسقطت إلا على من لايريدها.

قال بشر: لايجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس. وقال: سكون النفس إلى المدح وقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي وقال: ماتقى الله من أحب الشهرة.

كتب سفيان إلى أخ له: واحذر حب المنزلة، فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: حب الرئاسة هو أصل البغي والظلم.

* * *

الصفـــات

سبب امتناع رؤية الرب في الدنيا

قال شيخ الإسـلام ـ رحمـه الله ـ: وإنما لم ير لعجز أبصارنا عن رؤيته لا لأجل امتناع رؤيته كما أن شعاع الشمس أحق بأن يرى من جميع الأشياء ولهذا مثل النبي ـ ﷺ ـ رؤية الله به فقـال: «**تـرون ربكم كما ترون الشمس والقمر**». شبه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئي مثل المرئي، ومع هذا فإذا حَدَّق البصر في الشعاع ضعف عن رؤيته لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله الآدميين وقواهم حتى أطاقوا رؤيته، ولهذا لما تجلى الله للجبل خرّ موسى صعقًا فلما أفاق قال: ﴿**سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين**﴾. قيل: أول المؤمنين بأنه لايراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده. فهذه للعجز الموجود في المخلوق لا لامتناع في ذات المرئي.

ونقل شيخ الإسلام حديث الزهري قال: لما سمع موسى كلام ربه قال: يارب هذا الكلام الذي سمعته هو

كلامك قال: نعم ياموسى هو كلامي، وإنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها، وأنا أقوى من ذلك، وإنما كلمتك على قدر مايطيق بدنك، ولو كلمتك بأكثر من ذلك مت، فلما رجع موسىٰ إلى قومه قالوا له: صف لنا كلام ربك فقال ـ سبحان الله ـ وهل أستطيع أن أصفـه لكم قالـوا: تشبهـه قال: أسمعتم أصوات الصواعق التي تقبل بأحلىٰ حلاوة سمعتموها فكأنه مثله[1].

قال عثمان بن سعيد الـدارمي في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[2]. قال: معناه هو أحسن الأشياء وأجملها، وقالت الجهمية: معناه ليس هناك شيء، قال زيد بن أسلم: لما كتب الله التوراة بيده قال: بسم الله هذا كتـاب الله بيده لعبـده موسى يسبحني ويقـدسني ولايحلف باسمي آثمًا فإني لاأزكي من حلف باسمي آثمًا.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إذا جلس

---

(١) الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام جـ٥ ص٦١.

(٢) سورة الشورى آية ١١.

الرب ـ عز وجل ـ على الكرسي سمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد إذا ركب من ثقله.

وقد ذكر وهب بن منبه أنه قال في بعض الكتب الإلهية لست أسكن البيوت، ولاتسعني، وأي شيء يسعني والسموات حشو كرسيي؟ ولكن أنا في قلب الوادع التارك لكل شيء سواي.

في قلب الوادع معرفة ومحبة وإذا كانت السموات التي في جوفها الأرض حشو الكرسي ونسبتها إليه صغيرة جدًا، ثم أن نسبة الكرسي للعرش صغيرة جدًا فسبحان من لايقدر عظمته سواه.

إذا عرفت أن السموات والأرض في جوف الكرسي الذي هو موضع القدمين عرفت معنىٰ قوله ـ تعالى ـ: **﴿والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾**(١). وقول ابن عباس: «**ماالسموات السبع والأرضون السبع في كفّ الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**».

(١) سورة الزمر آية ٦٧.

ذكر شيخ الإسلام عن عبيد بن عمير في قوله ـ تعالى ـ في قصة داود: **﴿وإن له عندنا لزلفىٰ وحسن مآب﴾**(١). قال: يدنيه حتى يُمِسّه بعضه. [من الفتاوى الكبرى جـ٥ ص٨٨].

عن مجاهد في قوله ـ تعالى ـ: **﴿عسىٰ أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾**(٢). قال: يقعده معه على العرش. [من الفتاوى الكبرى جـ٥ ص٨٨].

وفي حديث أنس بن مالك: ثم يتبسم الله إليهم فيقول: سلوا فيقولون نسألك رضوانك. [من الفتاوى لشيخ الإسلام جـ٦ ص٤١٤].

قال ابن القيم: من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب بالجمال وهي معرفة خواص الخلق. ثم قال: ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة ونسب جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب ـ سُبْحانه ـ لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه

(١) سورة ص آية ٢٥. (٢) سورة الإسراء آية ٧٩.

لأحرقت سبحاته ماانتهىٰ إليه بصره من خلقه. ثم قال: ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائف: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة**». ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره ومن أسمائه الحسنىٰ الجميل وفي الصحيح عنه ﷺ: «**أن الله جميل يحب الجمال**». [من الفوائد ص١٨٢].

قال ابن القيم: إذا كان مشاهدة مخلوق يوم: ﴿**اخرج عليهن**﴾. استغرقت إحساس الناظرات فقطعن أيديهن وماشعرن، فكيف بالحال يوم المزيد.

وقال أيضًا بعد كلام له: إذ قد أحاط علمهم بأنه لانظير لذلك ولامثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلة شيء من المخلوقين وقد أعلمهم الله ـ سبحانه ـ على لسان رسوله أنه يقبض سمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن، وأن السموات السبع والأرضين السبع في كفّه كخردلة في كف أحدكم. وأنه يضع السموات على إصبع وسائر المخلوقات على إصبع، فأي يد للخق وأي إصبع تشبه هذه اليد وهذه الأصبع حتى يكون إثباتها تشبيهًا

وتمثيلاً، فقاتل الله أصحاب التحريف والتبديل، ماذا حرفوا من الحقائق الإيمانية والمعارف الإلهية وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان ونخالة الأفكار. إلى آخره... [من الصواعق المرسلة].

قال ـ تعالى ـ: ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب**﴾(١) السجل الصحيفة المكتوبة أي يطوي السماء كما يطوي السجل على مافيه من الكتاب ذكره ابن القيم.

ذكر الإمام أحمد أن موسىٰ عليه السلام أقام أيامًا لايحدث بني إسرائيل إلا متبرقعًا من النور الذي غشي وجهه حين كلمه ربه فلم يكن أحد ينظر إليه.

* * *

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٤.

معنى الاله والتأله

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: إذا أطلق لفظ الإلـه على كل ماعبد من دون الله، فإنه لايكسب في ذاته شيئًا كان قد عدمه سواء كان حجرًا أو ملكًا أو جنيًّا أو غير ذلـك، وسواء رضي أن يعبد من دون الله أو لم يرضَ، فالإسم لايضيف إليه في ذاته صفة كانت معدومة له لأن أصل هذا اللفظ وتصريفاته يدل على معنىٰ واحدًا وهو التعبد التفعل فكل من عَبَدَ شيئًا صار إلـهًا له، والمعبود بحق هو الله.

وقـال: وقـال هود: ﴿**اعبـدوا الله مالكم من إلـه غيره إن أنتم إلا مفترون**﴾[1]. وإذا كانت إلهية ماسوىٰ الله أمـرًا مُختلقًـا يوجـد في الـذهن واللسـان لاوجـود له في الأعيان، وهو من باب الكذب والاعتقاد الباطل الذي ليس بمطابق وماعند عابديها من الحب والخوف والرجاء لها تابـع لذلك الاعتقاد الباطل كمن اعتقد في شخص أنه

(١) سورة هود آية ٥٠.

صادق فصدقه فيما يقول، وبنى على أخباره أعمالًا كثيرة، فلما تبـيَّن كذبه ظهر فساد تلك الأعمال كأتباع مسيلمة والأسـود وغـيرهمـا من أصحـاب الـزوايا والـترهـات ومايشرعونه مما لم يأذن به الله بخلاف الصادق والصدق.

وقـال: فنفس تألهم وعبـادتهم إياهـا، وتعظيمها، وحبهـا، ودعـائها، واعتقادها آلهة والخبر عنها بأنها آلهة موجـود كما كان اعتقـاد الكـذابين موجودًا. وأما نفس اتصافها بالإلهية فمفقود كاتصاف مسليمة بالنبوة، فهنا حالان: حال للعابد، وحال للمعبود، فأما العابد فكلهم في قلوبهم عبادة وتأله لمن عبدوه، وأما المعبودون فالرحمن له الإلـهية وماسواه لا إلـهية له، بل هو ميت لايملك لعابديه ضرًا ولانفعًا: ﴿**قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغـوا إلى ذي العـرش سبيـلًا**﴾[1] وهو في أصح القـولـين (سبيـلا) بالتقـرب بعبـادته وذكره، ولهذه قال بعدها: ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾[2]. فأخبر عن الخلائق

(١) سورة الإسراء آية ٤٢. (٢) سورة الإسراء آية ٤٤.

كلها أنها تسبح بحمده. انتهىٰ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ﴾[1]. قال ابن كثير أي أنما يحملهم على عبادتهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله ـ تعالى ـ في نصرهم ورزقهم وماينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. انتهىٰ.

هذه هي الشفاعة التي يطلبها كفّار قريش من أصنامهم ليست الشفاعة التي تكون يوم القيامة لأنهم لايقرون بالبعث.

* * *

(١) سورة الزمر آية ٣.

الغربة والاغتراب

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ولايذوق العبد حلاوة الإيمان، وطعم الصدق واليقين حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه. والله لو تحقق ذلك الناس في هذا الزمان من قلب رجل لرموه عن قوس واحدة، وقالوا: هذا مبتدع، ومن دعاة البدع، فإلى الله المشتكىٰ، وهو المسئول الصبر والثبات فلابد من لقائه: ﴿وقد خاب من افترىٰ﴾[2] ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[3].. إذا كان هذا في زمنه فكيف بحالنا فحسبنا الله ونعم الوكيل.

والجاهلية هي الباطل المخالف للحق لاتختص بوقت معين. وقال: وأما الرضىٰ بدينه، فإذا قال، أوحكم، أو أمر، أو نهىٰ رضي كل الرضىٰ، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم تسليمًا ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقَلَّده، وشيخه، وطائفته. وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإياك أن تستوحش من

(١) سورة طه آية ٦١. (٢) سورة الشعراء آية ٢٢٧.

الاغتراب، والتفرد، فإنه والله عين العزة والصحبة مع الله ورسوله وروح الإنس به، والرضىٰ به ربًّا وبمحمد، ﷺ، رسولاً وبالإسلام دينًا، بل الصادق كلما وجد مَسّ الاغتراب وذاق حلاوته، وتنسّم رَوْحَه قال: اللهم زدني اغترابًا ووحشة من العالم وأُنسًا بك. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرد رأى الوحشة عين الأنس بالناس والذل عين العز بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم، فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيما لايجدي عليه إلا الحرمان، وغايته مودة بينهم في الحياة الدنيا، فإذا انقطعت الأسباب، وحقت الحقائق، وبعثر مافي القبور، وحصّل مافي الصدور، وبُليت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولاناصر تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران وماالذي يخف أو يرجح به الميزان، والله المستعان، وعليه التكلان. انتهىٰ.

إذا عرفت هذا فلا تشك أنه لو جرّد اليوم إنسان المتابعة للرسول، ﷺ، لصار غريبًا بين جميع الخلق، بل

لو صدق الله في مسألة واحدة مما ذكرنا وهي تفقد المطعم والمشرب الذي هو السنة لاستوحش من الناس، واستوحشوا منه، فضلاً عن أن يعمل بغيرها مما أصبح معروفًا بين الخاص والعام وهو منكر، فالله المستعان.

ويقال: افتضحوا فاصطلحوا. الجميع داخلون مداخل لاتصلح للدين فتصالحوا فلا يعيب أحد على أحد.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق وهي الغربة التي مدح رسول الله، ﷺ، أهلها وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريبًا وأنه سيعود غريبًا كما بدأ وأن أهله يصيرون غرباء. وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقًا فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يدعوا إلى غير ماجاء به وهم الذين فارقوا الناس أحوج ماكانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم: ألا تنطلقون حيث انطلق الناس فيقولون: فارقنا الناس

ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنّا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده، فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها، بل هو آنس مايكون إذا استوحش الناس، وأشد ماتكون وحشته إذا استأنسوا فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثرالناس

وقال ـ رحمه الله ـ: ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي، ﷺ، التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس وترك ماأحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله. لاشيخ، ولاطريقة، ولا مذهب، ولاطائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده وإلى رسوله بالاتباع لماجاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًا، وأكثر الناس بل كلهم لائم لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم. إلى آخر كلامه.

يظنون السواد الأعظم أكثر الناس، كذلك الجماعة وليس كذلك فالسواد الأعظم من كان من أهل السّنة والجماعة ولو كان واحدًا. هكذا قال سفيان الثوري: كذلك الجماعة من كان على ماكان عليه جماعة الصحابة

ولو كان واحدًا. ومعنىٰ لاتجتمع الأمة على ضلالة ليس كما يظنه أكثر الناس أن مافعله عامة الناس فهو ليس ضلالة بحجة أنه لاتجتمع الأمة على ضلالة، فهم يحتجون بذلك لأهوائهم، ومعناه أن الأمة لاتجتمع على ضلالة جميعها بل لابد أن ينفرد أحد بالحق ولو كان واحدًا. يبين هذا المعنىٰ ويوضحه أحاديث الطائفة المنصورة التي لاتزال على الحق إلى قيام الساعة ولو قال قائل: كيف يقول سفيان ولو كان واحدًا وفي الحديث طائفة فيقال له: لقد سمى الله الواحد طائفة وذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة**﴾[1]. والمعفو عنه واحد وهو مخشن.

وكذلك سمى النبي، ﷺ، الواحد طائفة قال ﷺ: «**معاذ بن جبل بين يدي العلماء طائفة يوم القيامة**». (ذكره أبو نعيم في ترجمة معاذ بالحلية).

فلا يغتر الإنسان بالكثرة وأي وزن لها إذا خالفت الحق. ثم قال ـ رحمه الله ـ: وكيف لاتكون فرقة واحدة

(١) سورة التوبة آية ٦٦.

قليلة جدًا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات ولايقوم لها سوق إلا بمخالفة ماجاء به الرسول، فإن نفس ماجاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم وماهم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غاية مقاصدهم وإرادتهم. فكيف لايكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كل منهم برأيه.

وقال: فإذا أراد المؤمن الذي رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ماالناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطّن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه وطعنهم عليه، وإزرائهم به وتنفير الناس عنه وتحذيرهم منه كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه فهنالك تقوم قيامتهم ويبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل ويجلبون عليه بخيل كبيرهم

ورجله فهو غريب في دينه لفساد أديانهم. غريب في تمسكه بالسّنة لتمسكهم بالبدع غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم. غريب في صلاته لسوء صلاتهم. غريب في طريقه لضلال وفساد طريقهم. غريب في نسبته لمخالفة نسبهم. غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على مالا تهوى أنفسهم.

وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرته لايجد من العامة مساعدًا ولا معينًا، فهو عالم بين جهال، صاحب سنّة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف. انتهى..

على الإنسان ألا يغتر فهذه الصفات التي وصفها ابن القيم ـ قدس الله روحه ـ للغرباء ليست تنال بالهوينا والعافية والدعوى المجردة، أو مجرد الانتساب للدين بلا عناء ولا كلفة هذا لايكون وقد بيّنا في إنارة الدرب في آخرها انحراف الخلق اليوم عن ماكان عليه نبيهم ﷺ وصحابته فليزن الإنسان نفسه وينظر في حاله والتوفيق بيد الله.

الدجـــال

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: وفتنة الدجال لاتختص بالموجودين في زمانه، بل حقيقة فتنته هي الباطل المخالف للشريعة المقرون بالخوارق، فمن أقرّ بما يخالف الشريعة لخارق فقد أصابه نوع من هذه الفتنة، وهذا كثير في كل زمان ومكان لكن هذا المعين فتنته أعظم الفتن، فإذا عصم الله عبده منها سواءًا أدركه أو لم يدركه كان معصومًا مما هو دون هذه الفتنة.

اعلم أن هذه الخوارق التي طبقت الأرض هي الفتنة التي ذكر الشيخ، وقال شيخ الإسلام: وقد ثبت في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان أن النبي ـ ﷺ ـ لما ذكر الدجال ودعواه الربوبية قال: **«واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت»** فإنه لما ادّعىٰ الربوبية ذكر النبي ﷺ فرقانين ظاهرين لكل أحد أحدهما أنه أعور والله ليس بأعور والثاني أن أحداً منّا لن يرى ربه حتى يموت وهذا إنما ذكره في الدجال مع كونه كافرًا لأنه يظهر عليه من الخوارق التي تقوِّي الشبهة في قلوب العامة. انتهىٰ. كذلك مكتوب بين عينيه كافر.

عن سفيان بن عيينة قال: بلغني أن الدجال يسأل عن بناء الآجر هل ظهر بعد.. يعني أن هذا من علامات قرب خروجه والآجر هو لبن الطين يحرق فيتصلب قليلاً ويستعمل في البناء، فالبناء بالآجر مذموم لأن ذلك من الاهتمام الزائد بالدنيا وعمارتها لهذا صار من علامات قرب خروج الدجال وقرب الساعة وفساد الزمان والذي يُبنىٰ فيه اليوم أعظم من الآجر.

أخرج أحمد عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: **«لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقيل وماذاك؟ قال أئمة مضلون»**[1].

قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال أمور تكون من كبرائكم فأيما رجل أو امرأة أدرك ذلك الزمان فالسمت

---

(١) في إسناده ابن لهيعة. وهناك حديث ثوبان بلفظ: *«إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»*. أخرجه أبو داود والترمذي والدارمي وأحمد وقال الترمذي: حديث صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان وأخرجه في صحيحه.

الأول.

والسمت الأول هو ماكان عليه النبي - ﷺ - والصحابة وترك ماأحدث الناس بعدهم.

* * *

البنيان

قال سفيان بن عيينة: بلغ عمر بن الخطاب أن رجلاً بنى بالآجر فقال: ماكنت أحسب أن في هذه الأمة مثل فرعون، قال يريد قوله: ﴿ابن لي صرحًا﴾[1] و ﴿فأوقد لي ياهامان على الطين﴾[2]. كيف لو رأى عمر هذه العمارات.

قال داود بن قيس: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشيًا من خارج بمسوح الشعر. يعني حجرات أزواج النبي ﷺ ورضي الله عنهن.

قال عبدالله الرومي: دخلت على أم طلق فقلت: ماأقصر سقف بيتك هذا قالت: يابني إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتب إلى عماله أن لاتطيلوا بناءكم، فإنه من شر أيامكم. انتهى. انظر مانحن فيه اليوم.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتقوم الساعة حتى يبني الناس بيوتًا يوشونها وشي المراجيل». ذكره البخاري في الأدب المفرد. وهو هذه العمارات والمراجيل هي

---

(١) سورة غافر آية ٣٦.

(٢) سورة القصص آية (٣٨).

الثياب المخططة.

عن راشد بن سعد قال: بلغ عمر أن أبا الدرداء ابتنىٰ كنيفًا بحمص فكتب إليه: أما بعد ياعويمر أما كانت لك كفاية فيما بنت الروم عن تزيين الدنيا وتجديدها وقد آذن الله بخرابها فإذا أتاك كتابي هذا فانتقل من حمص إلى دمشق.

قال سفيان: عاقبه بهذا. (**الكنيف كل ماستر من بناء أو حظيرة**).

قال شعبة: كنت أمشي مع أبي إسحاق في طريق الكوفة فأتي على دار تبنى بجص وآجر فقال: هذا التبذير في قول عبدالله بن مسعود إنفاق المال في غير حقه. ذكره ابن جرير في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولاتبذر تبذيرًا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين**﴾[2]. انتهىٰ. قارن بين هذا ومانحن فيه.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان، فأتناول سقفها بيدي.

* * *

(١) سورة الإسراء آية ٢٦.

(٢) سورة الإسراء آية ٢٧.

تنبيـــه

القرآن كلام الله صفة من صفاته لايجوز تسميته مادة كما هو شائع حيث يقال مادة القرآن أو المادة قرآن، إنما يقال: قراءة القرآن، دراسة القرآن، لأن كلمة مادة تعريف للشيء المخلوق.

كذلك فإنَّ من يقرأ بالمصحف والكتب التي فيها ذكر الله إذا أراد تقليب الصفحات بَلّ إصبعه بريقه ليسهل عليه تقليبها، وهذا فعل قبيح مُستقذر لكن الناس قد تعودوه، وقد ذكر ابن العربي أنه لو تعمد في المصحف بقصد الإهانة يكفر فيجب النزوع عن هذه العادة السيئة ولاتكاد ترىٰ أحدًا إلا وهو يفعل ذلك، فليس مااعتاده الناس عبرة إذا خالف الصواب، والله الموفق.

عبدالكريم بن صالح الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

مسئلة

من لم يكفر الكافر فهو كافر

الحمد لله رب العالمين.

الشيطان عدو ابن آدم وهو أحرص شيء على اقتطاعه عن ربه ولايبالي أن يختطف الإنسان ليفسد عمله سواء من جانب التفريط أو الإفراط. فهو يشم قلبه فينظر أي الجانبين هو له أمْيَل فيأتيه من قِبَلِه.

أما جانب التفريط فالأمر فيه بيّن قَلّ من يلتبس عليه، وإنما كثير مايحصل اللبس من جانب الإفراط وهو مرادنا هنا في مسئلة واحدة منه وهي مايسمى: **(تكفير من لم يُكفِّر الكافر)**. وقد رمىٰ إبليس بهذا السهم من السالكين إلى الله كثيراً، وذلك غالبًا يكون في بداية سلوكهم يستغل جهلهم وشِرّتهم حيث أن لكل عامل شرَّه كما ورد الحديث فيكون هذا السالك مهتم بهذا الأمر والشيطان يزيده حرصًا عليه واهتمامًا لما يريد أن يوقعه فيه نتيجة لذلك ثم أنه قد يتبيّن له كفر شخص أو أشخاص

فيكفرهم، وقد يكون هذا التفكير بحق أو بباطل وليس من شأننا هنا التكفير بباطل لظهور فساده لكن المراد لَوْ قُدِّر أنه كفّر مَن يستحق التكفير فيأتيه الشيطان مُلحًا عليه بتكفير من لم يُكفِّر هذا الكافر فيضيِّق عليه المسالك ويُوهِمه أنه لايصح له إسلام إلا بذلك وهو ليس عنده سلاح من العلم يدفع به شبهات الشيطان كذلك فهو يُقدم على مايقدم عليه من التكفير جملة وعمومًا ظنًا أنه يطبق هذه المسئلة على الواقع يعني تكفير من لم يكفِّر الكافر ولأنه يجزم أن مَن كفَّرهم لعدم تكفيرهم من تبين له هو كفره لايكفرونه فيحصل مراد الشيطان منه بهذا الإفراط العظيم.

والكلام في نفسه حق لكن الشأن في تطبيقه ووضعه في مواضعه فما كل من أخذ القوس ورمىٰ بها أصاب الهدف بل قد يقتل بها معصومًا. فيقال:

أولا: لابد من التحرز في مسئلة التكفير وعدم التهاون بها لخطورة شأنها وعظم أمرها فإذا كفّرت إنسانًا فقد شهدت عليه بأن أعماله كلها حابطة وأنه في النار مخلد فيها ومايتبع ذلك من أحكام الكفار. وقد قال النبي ﷺ:

«**على مثلها فاشهد**»[1] يشير إلى الشمس . . وهذا حتى في الأمور الصغيرة لابد منه كيف بمثل هذا وذكر العلماء أن التسرّع في التكفير يفعله الجهال.

ثانيا: على تقدير أنك كفّرت من يستحق التكفير، هل يلزمك في كل الحالات أن تُكفِّر من لم يكفّره حتى ولو لم يظهر له ماظهر لك من كفره؟ هذا لايجوز، فقد لايكون تبين له ماتبين لك.

ثالثا: لتعود إلى رشدك وتتخلص من شِبَاك عدوك الشيطان الذي أراد ضُرك، فاعلم أن الكافر الذي من لم يُكفره فهو كافر هو ماكفّره الله ورسوله وأجمع العلماء على تكفيره فهذا أمر جلي واضح المخالفة فيه هي اتخاذ غير سبيل المؤمنين مثل ماذكر الله في القرآن وذكر الرسول ﷺ فمن لم يُكفّر ماكفّر الله ورسوله فلا ريب أنه كافر. فالأمر فيه سعة ولله الحمد وماجعل الله علينا في الدين من حرج

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٣٨٠) وابن عدي في الكامل (٢/٣٦١) والحاكم ٤/٩٨ - ٩٩ والبيهقي من طريقه.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ورده الذهبي. وضعفه البيهقي وأقرهما الحافظ في التلخيص وقال: ضعيف.

ولكن الشيطان يريد أن يُضيِّق على المتديِّن المسالك ليوقعه في المهالك حيث يخيفه ويزعجه بأن إسلامه لايتحقق إلا بما هو على الحقيقة مفسد لإسلامه أعني المجازفة والمسارعة والتعميم في قضية التكفير ومن لم يكفر الكافر.

ومن نظر في كلام علمائنا من السلف يمرّ عليه في مواضع عديدة مايذكره بعضهم من تكفير لشخص أو طائفة ومايراهم يُضيّقون الدنيا بأن من لم يُكفره فهو كافر فلابد من توفر الشروط وزوال الموانع. والله الموفق وله الحمد.

كتبه عبدالكريم بن صالح الحميد

محتويات مطالب الطالب

الموضوع	الصفحة
مطالب الطالب ومثالب الناكب	٣
العلم والعلماء	٥
عقوبة من لم ينفعه العلم	٨
الإخـــلاص	١٠
رمتني بدائها وانسلت	١٢
طلب الدنيا بالدين	١٨
العلماء والسلاطين	٣٠
العمل بالعلم	٣٣
الورع وأكل الحلال	٤٠
تجريد اتباع الرسول ﷺ	٤٥
الرئاسة والشهرة	٥٠
الصفـــات «سبب امتناع رؤية الرب في الدنيا»	٥٤
معنى الإلـه والتأله	٦٠
الغربـة والاغتـراب	٦٣
الدجـــال	٧٠
البنيـــان	٧٣
تنبيه عن تسمية القرآن «مادة»	٧٥
بَلّ الأصابع لتقليب صفحات المصحف والكتب التي فيها ذكر الله	٧٥
مسئلة من لم يكفّر الكافر فهو كافر	٧٦
الفهـــرس	٨٠